٩٩/٤/١٢٨
مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢١٠
التاريخ ١٥/٢/١٤٢٠

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

الفكر العربي

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبد الله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبد السلام المسدي — رئيس التحرير

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

ص.ب المجلة: ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد: ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن: ٢ ل.ل. أو ما يعادلها

الحركة الصليبية

وأثرها على الاستشراق الغربي

د. علي الشامي

I ـ الاسلام والمسيحية

عندما كتب المؤرخ الروسي **فاسيلييف** مؤلفه الهام « تاريخ الأمبراطورية البيزنطية »، وصل في استخلاصاته إلى حقيقة تاريخية: « يشكل عصر الحملات الصليبية أكثر العصور أهمية في التاريخ العالمي، وتحديداً من وجهة نظر التاريخ الاقتصادي والحضارة بشكل عام، وخلال فترة طويلة من الزمن، تقدمت المسألة الدينية على الملامح الأخرى لهذه الحركة المعقدة والمتنوعة »[١].

نفهم من هذه الخلاصة أن الحركة الصليبية لعبت دوراً مركزياً على مستوى الأحداث العالمية التي تمحورت في بداية العصر الوسيط بين أهم قوتين: الشرق الاسلامي والغرب المسيحي، وخاصة فيما يتعلق بنوعية العلاقة التي ترافقت معها وأعقبتها ومدى تأثيراتها على الرؤية المستقبلية لكل منهما؛ كما نفهم أيضاً أهمية العامل « الديني » الذي غلّف الأهداف الصليبية ووضع جنباً إلى جنب رجال الدين ورجال الدنيا، أو كما ينقل **شالاندون** عن كوغلر: « كان يوجد في الحركة الصليبية فئتان، فئة الناس الاتقياء وفئة السياسيين »[٢]. والأهم من ذلك كله، أن هذا العامل قد أدّى إلى خلق حالة مواجهة ذات طابع ديني بين عقيدتين وحَّد بينهما الله، قبل أن تفرّق بينهما أطماع الغرب « الشرقية ».

وفق هذا السياق، يدخل الزمن الصليبي في صلب العلاقة التاريخية، المتوترة والعدائية، التي وضعت الاسلام دائماً في حالة دفاع متواصل ضد الغرب الذي لم يكتف بنتائج معركة بواتييه. ومنذ ذلك الحين، القرن الثامن الميلادي، « مرت العلاقات الثقافية، والمادية والفكرية بين أوروبا والشرق بمراحل لا تُحصى، رغم أن الخط الفاصل بين الشرق والغرب قد ترك أثراً محدَّداً دائماً على أوروبا. ومع ذلك، يقول ادوارد سعيد فقد كان الغرب بشكل عام هو الذي زحف على الشرق، لا العكس »[٣]، خاصة وأنه كان ينظر دائماً إلى انتصار الاسلام، بوصفه هزيمة لسيطرة الغرب التاريخية، ولم يتم اعتباره اطلاقاً مساهمة شرقية تبحث عن تحقيق ما

لإنسانوية جديدة، بقدر ما كان تطوره خاضعاً لتفسير ضيِّق، يختصر ظاهرة الاسلام في تجلياتها داخل ميزان قوى سياسي واقتصادي قبل أي شيء آخر؛ مما يجعل بديهياً تأسيس صورة سلبية عن الاسلام، تمظهرت في مرحلة أولى من خلال عزلة الغرب الوقائية ضد « وباء الاسلام »، وتجسَّدت في مرحلة ثانية، في زحف صليبي لم ينته حتى الآن، رغم تغيّر ظواهره وتعابيره.

فالاسلام، كان قد « مزّق بانتصاره وحدة العالم، الذي عمّر أكثر من ألف سنة، فشطره شطرين: شرقاً وغرباً »، كما تقول **زيغريد هونكه**[٤]؛ أو أنه « غيّر وجه العالم »، كما يقول **بيرين**[٥]، وفي مواجهة هذا الانتصار « أحاط الغرب نفسه إحاطة محكمة بستار حديدي لمئات من السنين، خوفاً من هجوم الشرق عليه. لقد أرغم الاسلام، بهويته المستقلة عن الغرب، الغرب أن يؤسس عزلته الذاتية »[٦]، بيد أن هذه العزلة لم تكن إلاَّ نسبية ومؤقتة، فقد ظل الغرب محتفظاً بحد أدنى من الاحتكاك والتفاعل الحذر، ولكنه ظلّ أيضاً ولفترة طويلة يحلم بالعودة إلى غلبته التاريخية على الشرق ما قبل الاسلامي؛ ذلك أن الوحدة السياسية للبحر الأبيض المتوسط كانت تشكل باستمرار قوة أوروبا، بشرط أن الوحدة السياسية للبحر الابيض المتوسط، « من بحيرة رومانية » إلى « بحيرة اسلامية »، فإن ذلك يحتاج إلى تصرُّف من نوع آخر يختلف عن العزلة: استعادة السيطرة بواسطة القوة[٧]. ومن أجل ذلك، لم يتردد الغرب الوسيطي (نسبة إلى العصر الوسيط) في استخدام كافة الوسائل التي تتيح له تأمين هدفه المنشود، وهذا ما يفسّر الاستعمال المتشدّد للمسيحية كعامل تحريض من الدرجة الأولى، رغم أن النتائج كانت أكثر سلبية من مساوىء إلباس المسيح ثياب محارب أوروبي. ولما كانت الهزيمة مقدمة لانتقال في الوضعيات، فإنها وضعت الخاسر في حالة عدائية قصوى. وبينما تتماهى انهيارات الاحلام التوسعية للمشروع الصليبي مع عدم جدوى « المسيحية »، تخلق هذه الأخيرة حالة عامة من القلق الايديولوجي، لم يلبث أن تحوّل بسرعة ملحوظة إلى رعب عام تجاه الاسلام، وتشدُّد صارم في تطبيق تعاليم الكنيسة.

بالمقابل، لم يؤدِ الانتصار الاسلامي، الذي جاء بعد زمن طويل، إلى تأسيس رعب عقيدي مماثل، وفي أسوأ الحالات، أدت نتائج المواجهات الاسلامية ـ الصليبية إلى حالة من الحذر المستحدث تجاه المسيحية الغربية بشكل خاص. خاصة وأن علاقة الاسلام بالمسيحية الشرقية لم تكن مصدر قلق دائم بالنسبة للمسلمين، بقدر ما استوعب هؤلاء قبول مسيحيي الشرق في العيش داخل أرض الاسلام، وبقدر ما كانت بيزنطة نفسها في تحوّل بطيء، ولكن شبه حتمي، نحو الانخراط في حضارة الاسلام. لقد بدت « مسيحية » الزمن الصليبي كعلامة مفارقة. فهي مشروع سياسي خارجي، أو ايديولوجية دولة قيد الولادة، أو تبديد روحاني متأخر لاستعادة مجد روما. بيد أنها، في كل هذه الحالات، لم يتم التماهي مع تلك « المسيحية » التي عرفها المسلمون في القرآن وفي تقاليد الشرقيين. وبتحديد أكثر، يمكن اعتبارها « عقل » الغرب قبل أن يقطع علاقته بالكنيسة، أو أنها رغبة

الكنيسة في أن تتحوَّل إلى دولة. ومهما يكن، فإن هذا الغرب هو الذي أنتج حالة الحذر من تلك المسيحية السياسية، التي اخترقت استقرار الجماعة الاسلامية، وهو الذي أتقن صناعة « مسيحية » ما، تتلاءم مع مصالحه، وترسم مستقبله وتمايزه عن الشرق الاسلامي والمسيحي في آن واحد.

وقد تحوّلت هذه الظاهرة إلى حقيقة ذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ أوروبا، والتي يرى هشام جعيّط أنها تكمن في « أن الشرق المسيحي المتقدِّم أكثر من الغرب يعيش الآن تحت وصاية دولة متسامحة بالطبع، لكنها ليست غير مبالية، أي أنها جهزت سابقاً بدين. لأن المسيحية الشرقية قد فقدت التعبير والقوة السياسيْن، فإن تطوُّر موقفها تجاه الاسلام يفقد كل أهمية ضمن تحليل قائم على مواجهة للحضارات. على عكس ذلك، وبمقدار ما نتقدم بالزمن، تتماهى المسيحية السياسية مع الغرب الاوروبي لتبلغ أوجها في الحروب الصليبية، هذا إذا استثنينا بيزنطية التي تبدو ـ إذا استعدنا الماضي ـ دون مستقبل. إن العالم المسيحي حقيقة غربية محضة، وليس مجرد جماعة دينية، لقد شاء أن يكون جسماً سياسياً، وكان له ذلك إلى حد واسع. من هذا العالم، خرجت أوروبا الحديثة، وهذا ليس بالشيء القليل. لكن ذلك يعني أن الأمر الرئيسي هو استقلاليته، وليس درجة ثقافته التي كانت غير متقنة في البداية، إلاَّ أن هذه الاستقلالية لم يكن لها من معنى في العصور الوسطى إلاَّ بالنسبة إلى الإسلام »[٨]. بمعنى آخر، وفي مواجهة الاسلام وبهدف التمايز عنه والتناقض معه، كانت استقلالية الغرب، بمثابة ايديولوجية داخلية: تبرير نفي « الآخر »، غلبة المسيحية على الاسلام في الأصول وعلم اللاهوت، تشريع التفوُّق الغربي والدونية الشرقية، تشجيع الانغلاق الثقافي... وقد وصلت هذه الاستقلالية إلى ذروتها في « التعصُّب » الغربي، تجاه كل ما يمت إلى الاسلام بصلة، تعصب ازداد عنفاً إثر النهاية التي وصلت إليها آخر الحملات الصليبية ضد الشرق الإسلامي، وانهيار آخر الآمال الغربية التي حملها معه لويس التاسع إلى الهزيمة.

لذلك، لم تكن الجهود الاستشراقية ـ التي خرجت إلى الوجود في أعقاب الحركة الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي ـ مجرَّد تخيّلات حول الشرق الاسلامي، صاغها رحالة أوروبيون، بقدر ما كانت تتويجاً فكرياً لمرحلة تاريخية هامة سعى الاستشراق البدائي لتصويرها بشكل معاكس: انتصار الغرب المنهزم، وهزيمة الاسلام المنتصر.

إن أخذ هذه الجهود بعين الاعتبار، وإدراك أهمية التفاصيل التاريخية لزمن الصراع الصليبي ـ الاسلامي، يساهم في معرفة الأصول التي تستمد منها العصبيات الحضارية الحديثة دعائم استمرارها. ذلك أن العصبية الحضارية التي تختصر علاقة الشرق الاسلامي بالغرب، لم تتشكَّل خارج السياق التاريخي لمواجهة معقدة ومتعددة المستويات وقفت فيها أوروبا ـ العصر الوسيط بشكل حاد ضد تنامي الحد الاسلامي.

لقد جسَّد المشروع الصليبي الأصل النـواة الصلبة لحركية عدائية سوف تعمل، فيما بعد، على تأسيس الشرخ العميق والهوة التي فصلت بين الشرق والغرب؛ يضاف إلى ذلك، أن نتائج هذه المواجهة وأحداثها كانت قد ساهمت أيضاً في إضعاف حالة التبادل الحضاري، كما عملت على توجيه التناقض وجهة، لم يكن بالإمكان تفاديها إلاَّ عن طريق إلغاء أحد الطرفين: الاسلام أو الغرب. ومما لا شك فيه، أن الحركة الصليبية قد لعبت دوراً مركزياً في هذا المجال، ليس فقط من ناحية التعبئة الايديولوجية والعرقية للغرب الاوروبي إبان الحملات، بل أيضاً، وبشكل أكثر أهمية، من خلال صيـاغتـه اللاحقـة لـرؤيـة غـربيـة سلبيـة تجاه الاسلام والمسلمين. وقد استهدفت هذه الرؤية، على ما يبدو، تحقيق غايتين في آن معاً: تطويق سلبيات التراجع الصليبي أمام الحماس الاسلامي وتحضير النفوس لمواجهة جديدة، كان مقدَّراً لها أن تعقب الانتصار البرتغالي ـ الاسباني في القرن الخامس عشر، لو لم يعمل الخليفة العثماني على إعاقتها وتأخيرها إلى مطلع القرن التاسع عشر.

وفق هذا السياق، تغدو الحركة الصليبية عبارة عن الأساس ـ الأصل، الذي قامت عليه عصبية الغرب تجاه الاسلام، عصبية لم يُظهر حدتها وسلبياتها سوى الإطار الذي رسمته أوروبا لنفسها، سياسياً وجغرافياً وايديولوجياً، وذلك منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. أمَّا تاريخ القرون الأربعة الفاصلة بين بدء الدعوة الاسلامية وقدوم الحملة الصليبية الأولى، فإنه يلحظ علاقة واضحة ربطت مسيحيي الشرق بالمشروع الاسلامي، ويشهد انفتاحاً حضارياً تاماً من قبل الاسلام، تجاه الغرب المسيحي المتطلّع بلهفة وحذر نحو حدود الاندلس. من جهتها، لم تكن العصبية الاسلامية المعادية للغرب وليدة تحوّل داخلي في مسار الدعوة الإسلامية، بقدر ما كانت نتاجاً طبيعياً لفعل الغرب نفسه، فالعصبية الاسلامية العامة التي نمت وتشكلت في المراحل الأولى لانتشار الدعوة، لم تأخذ إطلاقاً صورة عدائية تجاه المسيحية؛ فهي ـ أي العصبية ـ لم تتطوَّر على قاعدة العداء للأديان أو للشعوب الاخرى، بل سعت عملياً، نحو هدفين متلازمين: تأمين وحدة الجماعة ومواصلة نشر الدعوة. أمَّا تحوُّلها إلى عصبية دفاعية، فإنه يعود أساساً إلى الشكل الذي اتخذته ردة الفعل الاسلامية تجاه المشروع الصليبي، شكل حوَّل بدوره رد الفعل إلى فعل واعٍ، أسس لاحقاً مرتكزاً تاريخياً هاماً من مرتكزات الموقف الاسلامي تجاه الغرب. عملياً، سعى الاسلام ـ بوصفه دعوة وعقيدة وتأسيساً لمجتمع جديد ـ إلى احتواء العصبيات القبلية، التي حالت تاريخياً دون قيام وحدة القبائل العربية، وإدراجها في تراتب نسبي داخل «جماعة» جديدة خرجت إلى الوجود في أعقاب مواجهات خطيرة ومعقدة، لعبت خلالها «النبوة» والبراعة السياسية لممارسة الرسول (صلعم) اليومية، وسط تناقضات الجزيرة، وعمق اسلام المسلمين الأوائل، دوراً ملحوظاً في تذليل عقبات قيامها. وفي حين يمارس الانتماء العربي لقبائل الجزيرة مهمة إخراج الوحدة الدفينة لعرق مشتّت، يحسم الدين إشكالية المركزة، فيقيم دولة الدعوة وفق هرمية مرحلية «قريش، العرب، المسلمين»، وذلك على أنقاض العصبيات

الخاصة لقبائل تخصّصت باللامركزية والغزو المتبادل؛ ولما كانت الدعوة تتضمَّن باستمرار « مشروعية » مطالبتها بالشمولية، فإنها وضعت نفسها مسبقاً أمام مهمة تجاوز قاعدة قيامها الأولى (قريش، العرب)؛ وربطت عالميتها بهذا التجاوز. وتبعاً لذلك، استلزمت الدعوة قوة أخرى تستعين بها على نفسها ـ بالمعنى السياسي ـ لتحتوي عصبيتين: واحدة قبلية، تمثلت بقرشية الخلافة؛ وأخرى قومية، تمثلت بعروبية الفتوحات. وإذ تمارس القرشية رمزية وحدة الجماعة، وتضع العروبية نفسها في خدمة انتشار الدعوة، فإن ذلك استتبع غلبة الدعوة ـ الجماعة على القبيلة ـ القوم، وبالتالي احتواء المعادلة الاولى للمعادلة الثانية، وارتكاز الامة على عصبية جديدة عامة، كانت مهمتها المركزية تذليل تناقضات الجماعة الجديدة، وذلك بهدف تأمين الوحدة الداخلية للمؤمنين وحشد طاقاتهم للمطالبة وتعميم الدعوة الدينية[٩].

انطلاقاً من هذا الإيجاز التاريخي، يمكن فهم قدرة الدين على تجاوز الصراع العصبي الأول حول الخلافة (سقيفة بني مساعدة)[١٠]، واستيعاب مهمة العصبية العامة التي اتاحت للدعوة في الخروج من إطارها الصحراوي، خالقة بذلك حالة أولى من التلاحم العقيدي، الذي سرعان من أعطى ثماره الأولى: **تجاوز هزيمة مؤقتة** (عام ٦٢٩ م)، **والتقدم نحو فلسطين ومعركة اجنادين** (عام ٦٣٤ م)، ومن ثم **إعلان اندحار البيزنطيين** بعد معركة اليرموك (عام ٦٣٦ م)، ترافق ذلك مع **فتح دمشق** (٦٣٥ م) **ومصر** (٦٣٩ م) **وفارس** (٦٤٠ م) **وطرابلس الغرب** (٦٤٧ م) **ووصول بواخر معاوية إلى قبرص** (٦٤٩ م)[١١].

وبينما تخرج الدعوة من دائرة انطلاقتها، تزداد الحاجة إلى العصبية العامة التي باتت شرطاً أولياً لاستيعاب المؤمنين الجدد، وتأليف قلوبهم مع القيادة القرشية والمقاتلين العرب. وبالتالي، بدأت العصبية الاسلامية تشهد تعزيزها ونموها وسط التطورات المتسارعة ووسط تزايد الحاجة إليها، بوصفها القانون الذي يحمي الجماعة من الداخل، وينقل لواءها إلى الخارج؛ فتستمر الدعوة في الإنتشار رغم الصراعات الداخلية حول الخلافة بين البطون القرشية، حيث لعبت عصبية الدعوة (أي التعصُّب لها) دوراً حاسماً في عدم إيصال صراع العصبيات القرشية إلى وضعية جاهلية: أمام قوة الدعوة وتزايد الحاجة لعصبية تؤمّن حمايتها، ينهار الانقسام الذي هدّدت « صفين » بحدوثه، وعملت مصلحة الجماعة على تجاوزه. فتلتئم العصبيات الخاصة داخل العصبية العامة، دفاعاً عن الاسلام. وفي هذا السياق، لم يتردد الامام علي بن أبي طالب (ع) بالقول: « والله لو فعلها ابن الاصغر لوضعت يدي في يد معاوية »، لحظة معرفته بخطر أكبر يهدّد الاسلام برمته[١٢].

يساعد هذا التحديد لوظيفة العصبية العامة على انتشالها من حالة الالتباس المتأتية من الاستعمال الاصطلاحي لها، ويبرر، إضافة إلى ذلك، استمرارية تداولها من خلال الحاجة إليها، وديمومتها على امتداد التاريخ الاسلامي. أمّا « المسيحية » فإنها لم تشكل، ـ على الأقل قبل الحملات الصليبية ـ شرطاً من شروط قيام العصبية

الانطلاق، من عصر الشيئية في عهد العصر الجاهلي، للوصول إلى تلك القمم الشامخة التي أشع منها العلم على العالم الذي كانت تخيم عليه الظلمات.

واليوم أرانا تبهرنا هذه القمم الشامخة ونتيه في عالم الخيال لما تذكرها أقلام المستشرقين، وان نكرتها يعترينا مركب النقص، وفي كلتا الحالتين تصب هذه الدراسات في روحنا حرماناً مزدوجاً، لا نستطيع التخلص منه إلا إذا تذكرنا السلم الذي وضعه المفهوم القرآني ليتسلقه الفكر الانساني حتى يصل على درجاته إلى تلك الانجازات العلمية التي تهيمن حتى اليوم على التقدم التنكولوجي، مثل الحساب العشري أو الغباري، والجبر، والكيمياء وعدد من القوانين في عالم الكائنات العضوية، والطبيعة، والفلك، وإذا تذكرنا هذا السلَّمَ فلنعلم أنه ما زال تحت يد أو تحت قدم المجتمع الاسلامي متى أراد استخدامه من جديد، وبحسبنا أن نقرر أن مساهمة الفكر الاسلامي في تنمية تراث الانسانية العلمي ليست تقدر فحسب بانجازات يقرها أو ينفيها المستشرق، حسب هواه بل تقدر بالتغيير الجذري الذي أحدثه المفهوم القرآني في المناخ العقلي والبناءات العقلية، منذ كلمة « اقرأ ».

وبالتالي، ربما وجب علينا أن نستخلص من هذا العرض نتيجة تحدد موقفنا من إنتاج المستشرقين، فنقول أولاً انه إنتاج لا يجوز نكران قيمته العلمية، بل نراه أحياناً يستحق كل التقدير لما يتسم ـ في بعض أصنافه مثل ما خلفه سيديو أو جوستاف لوبون أو آسين بلاثيوس ـ بالاضافة إلى طابعه العلمي، بطابع أخلاقي ممتاز لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود نعرف قيمتهم كعلماء.

ولكننا نُغْفِلُ جانباً أساسياً في الموضوع إذا لم نأخذ في حسابنا أن كل ما ينتجه العقل في هذا القرن العشرين الخاضع لمقاييس الفعالية، لا يخلو من بعد عملي قد يستغل في ميدان السياسة والانتفاع حيث تصبح الأفكار، ما سما منها وما كان تافهاً، مسخرة لتكون وسائل إفتضاض الضمائر والعقول.

ان الكتب، بغاليها وتافهها، تقع بمجرد خروجها من الطبع، وتقع أحياناً دون أن يشعر أصحابها في أيدي أخصائيين يُسَخّرونها للصراع الفكري، فَيُصيّرونها أدوات للمشاغبة، وللتحلل الأخلاقي، أو مجرد أدوات إلفات وتلهية، ومما نلاحظه أن الكتاب الذي يتعلق بموضوعنايصدر في عاصمة أوروبية في نفس الوقت مع ترجمته في عاصمة عربية.

ولا يبدو هذا التنسيق يلفت النظر حتى في البلاد التي تعاني آثار الصراع الفكري، ودون أن تشعر هذه البلاد بالوسائل التي يستخدمها هذا الصراع ولا بأهدافه، بل ولا بمعنى هذه الكلمة نفسها كأنها مجرد مفردة.

ولنختبر بهذا الصدد عقلاً متنوراً فسوف نراه يحوم حول جواب متردد مرتاب، ولا يستطيع صياغته بوضوح، وإنما يتمتم: الصراعُ الفكري؟.. آه لعلكم تتحدثون عن الوجودية، الماركسية، والسريالية؟

وإذا ما أبرزتم أكثر معنى سؤالكم، وقلتم: لا يا سيدي بل أتحدث عن ماركسية لا صلة لها بماركس، وإنما هي مجرد كلمات وشعارات تلقنها لشبابنا بعض سلطات ترى في الماركسية مجرد وسيلة للعمل ضد الإسلام، كما أتحدث عن وجودية لا صلة لها بوجودنا على الاطلاق، وعن سريالية لا تمت بصلة للفن، وليست هذه الأشياء في الواقع إلا وسائل للتغلغل في عقول النشىء الجديد تستعملها من أجل هذا الغرض دوائر لا تؤمن بها من الناحية الفلسفية والفنية والاجتماعية.

انني أتحدث مثلاً عن تلك الكتب من نوع « ديجست» التي توزع مجاناً أو بثمن بخس على الشباب كي تعينه بتواضع ثمنها على هضم الأفكار المعروضة لضميره..

ولكن هيهات... هيهات أن يفقه هذا الحديث « الفكر المتنور » الذي يستمع لكم، إن على بصره لغشاوة، ولستما،

أنتم وهو، على نفس الصعيد، فهو يعيش على الصعيد الفكري، حيث نتلقى أفكار الغير بكل تقدير، لأن الآراء والأذواق ليست موضوع نقاش، حسب زعمهم، وربما تكونون أنتم على الصعيد الايديولوجي حيث يجب أن تطرح كل فكرة واردة تحت المجهر لينظر في شأنها، لأن الفكرة قد لا تكون، على هذا الصعيد، مجرد فكرة ينظر فيها من الزاوية الفكرية أو الفنية فحسب، أو بالنظر إلى نوايا صاحبها فقط، ولكن ينظر فيها من حيث نوايا من يستخدمها.

وعلى العموم فإن من يستمع إليكم لا يفهمكم لأنه خالي الذهن من فكرة الصراع الفكري، في العالم، وعلى أكثر تقدير يشعر بوجود هذا الصراع في المجال الدولي بين الكتلتين الكبيرتين.

يجب إذاً أن نذكر، ولو كلمة، على هذا المفهوم بالنسبة لموضوعنا، حيث لا نعتبر انتاج المستشرقين من زاوية ذاتية أصحابه، من ناحية ميزاتهم الفكرية ونواياهم، بل من زاوية من يستخدم إنتاجهم لغايات خاصة في عالمنا نفسه، لا في عالم بعيد أو خيالي.

فهذه الغايات التي عرفناها فيما سبق بـ «افتضاض الضمائر» يمكن تلخيصها كما يلي: ان كل فراغ ايديولوجي لا تشغله أفكارنا، ينتظر أفكاراً منافية، معادية لنا.

فهذه هي القاعدة العامة... والمتخصصون في الصراع الفكري يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، ولكن يجب أن نضيف إلى ذلك أن أولئك الاخصائيين ليسوا مجرد مثقفين، يبحثون عن الحقيقة، لأنها حقيقة، ولكنهم يبحثون عن جانب التطبيق منها في مجال المصلحة السياسية، ولعلهم إذاً لا ينتظرون وُقوع الفراغ الايديولوجي لاحتلاله، بل يصنعونه هم، وربما يشغلونه مؤقتاً بأفكار سواهم حَتّى تنتهي، في مرحلة أولى، عمليةُ فصلنا عن أفكارنا بتلك الأفكار الفاصلة الوسيطة.

أجل، إن هذا المجال ليس المجال الذي يطبق فيه المبدأ المقرر تبعاً لخط مستقيم، مثل الهندسة، حيث النتيجة المنطقية تتبع مباشرة التي قبلها، فالصراع الفكري يجري فيه منطقه الخاص، تبعاً لخط ملتوٍ على العموم، بحيث يقتضي الانتقال من مرحلة معينة إلى أخرى، إلى مراحل وسيطة تفرض منعرجات ومنعطفات الطريق.

فالماركسية المزيفة مثلاً، التي تلقن إلى الجناح اليساري من شبابنا، ليست إلاَّ مرحلة وسيطة، تفصل طائفة من شبابنا عن الجبهة الايديولوجية الوطنية، لأن المشرف على عملية الفصل، لا يستطيع أن يقول لتلك الطائفة: نريد تخفيض حركة النمو في بلادكم، والحد منها، هل لكم أن تعينونا على تشويه واستنقاص الأفكار والمثل التي تدعم هذه الحركة؟ ان قولاً كهذا يكون قطعاً صنفاً من الجنون والعبث لا نتصورهما في ابليس.

فما يبقى عليه إلا أن يحمل هذه الطائفة على جسر من أفكار الغير ليعبر بهم إلى الضفة الأخرى حيث نجد عصابة من ماركسيين مزيفين، وقوميين مصطنعين، وأفراد مقنعين على وجوههم قناع الثورة.

وبهذه العملية الأولى تكون قد حصلت على نتيجة أولى: أن وحدة الصف المعنوية قد انفصمت في الوطن في الوقت ذاته الذي هو في حاجة لها لمواجهة مشكلات الاستقلال الصعبة وذات الأهمية الكبرى.

حتى أن عدد هذه المشكلات، عوض أن ينقص، يتزايد بقدر من تأتي العملية بنتائجها الفكرية لدى هذا الشباب، وبنتائجها الاجتماعية في المجتمع، حتى يصبح هذا الشباب يلعب دور الفرملة عندما يضع عليه أخصائيو الصراع الفكري قدمهم، ونقول قدمهم لأنهم يتنزهون أن يضعوا أيديهم على هذه الأجهزة.

وربما تبدو هذه الاعتبارات دون صلة بموضوع المستشرقين، نقول أجل لها صلة، على شرط أن نتبصر في

العملية بصورة شاملة، لأنها في الوقت الذي نلاحظها من جانب الشباب الذي تحقن له حقنة من سيروم الكلاب المسعورة، فينطلق يلهث في مجال الديماغوجية، نراها تستمر في الناحية الأخرى حيث يصب نفس **الأخصائيون** في روح الجناح الآخر من شبابنا عقار النوم والسلوى من خالص إنتاج المستشرقين.

وهكذا تتم العملية على جناحي شبابنا: الجناح المصاب بالشلل المضطرب والجناح المصاب بالشلل المسكن. فالبعض يصيحون ويضطربون، والآخرون يحلمون في بلاد تتطلب النظام والجدية، وتتطلب الضمير المتيقظ على الدوام لمواجهة مشكلات الاستقلال.

وعلى كل هكذا نرى الانتاج الاستشراقي في دوره في إطار ما نسميه الصراع الفكري.

والآن نتساءل: كيف يجب أن يكون عملنا الفكري في هذا الاطار؟ فليسمح لنا ألاّ ندخل في التفصيل في هذه السطور، وأن نتقدم فحسب بالملاحظة العامة التي نراها تتردد، عن حق، في أحاديثنا اليوم بأن الاستقلال السياسي لا يكفي ولا يشفي إن لم يدعمه الاستقلال الاقتصادي.

فهذا صحيح.. إلا أنه يجب أن نضيف له أن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج سواء كانت تمت إلى الاستشراق أو الشيوعية.

وأن في تجربة كوبا لأكبر دليل على ذلك فإنها تشق طريقها اليوم بالخبرة التي تكتسبها في التطبيق لا في الكتب.

فعلينا أن نكتسب خبرتنا كذلك، أي أن نحدد نحن موضوعات تأملنا وألا نسلّم بأن تُحَدّدَ لنا.

وبكلمة علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي.